ظاهرة التطرف والتكفير؛
الوقاية والعلاج

الطالبة الباحثة صالحة الراضي
مسجلة بتكوين الدكتوراه:
مدارك الاجتهاد في المستجدات الإنسانية المعاصرة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش
المغرب

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التطرف في اللغة معناه: الوقوف في الطرف، إذا فهو يقابل التوسط والاعتدال، (*) قال الشاعر:

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ *** بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفَا

التطرف وباءٌ عاناه البشرُ في ماضيهم ويعانونه في حاضرهم – وقد يعانونه في مستقبلهم –، وأيُّ معالجةٍ ناجعة للتطرف تستهدف استئصالَ جذوره، لا تقليم أظفاره، والقضاء على مسبباتِه، لا على مظاهره.

وظاهرة التكفير أيضا: ظاهرة خطيرة في دين الله، وفي حياة الناس، والذي ينبغي أن نؤصله هنا: أن الحكم بالكفر على إنسان ما، حكم جد خطير، لما يترتب عليه من آثار هي غاية في الخطر.

إشكالية البحث:

- ما هي العلاقة بين ظاهرة التطرف وظاهرة التكفير؟
- ماهي سبل الوقاية والعلاج من ظاهرة التطرف والتكفير؟.

سأعتمد على بعض كُتب الدراسات السابقة:

- التطرُّف... خبز عالمي: المؤلف: الدكتور راشد المبارك، دار القلم، دمشق الطبعة الأولى 2006 م.
- ظاهرة الغلو في التكفير: المؤلف: الدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، عابدين، الطبعة الثالثة، 1411 هـ – 1990 م.
- الوسطية في الإسلام: المؤلف: الشيخ عبد الرحمان حسن حَبنكة الميداني، مؤسسة الريّان، الطبعة الأولى، 1996م.

ولتحقيق ذلك؛ سلكت الخطة التالية: تناولت العرض في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة فأشرت فيها إلى عنوان العرض، والإشكال في الموضوع، والدراسات السابقة فيه، والسبب في اختيار الموضوع، وأهداف العرض، والتصميم المتبع لإنجازه، ثم تمهيد يوضح إشكالية الموضوع.

وأما المبحث الأول حول ظاهرة التطرف؛ أنواعها؛ أسبابها وآثارها، وتحته ثلاثة مطالب: الأول: حقيقة التطرف الديني ومعياره، والثاني: أدلة النهي عن التطرف من الكتاب والسنة، والثالث: معيار التطرف؛ آثاره؛ وصفات المتطرف.

وأما المبحث الثاني حول ظاهرة التكفير؛ خطورتها؛ والصلة بينها وبين ظاهرة التطرف، وتحته ثلاثة مطالب: الأول: القواعد الثمانية: بماذا يدخل الإنسان في الإسلام؟، والثاني: خطورة التكفير، والثالث: الصلة بين التطرف والكراهية والتكفير.

وأما المبحث الثالث حول ظاهرة التطرف والتكفير؛ الوقاية والعلاج، وتحته مطلبين: الأول: الوقاية من ظاهرة التطرف والتكفير، والثاني: المعالجة الناجعة لظاهرة التطرف والتكفير.

والله ولي التوفيق.

تمهيد:

مع أن التطرف وما يثمره أو يفرزه من عنف هو خبزٌ عالمي، وُجد ويوجد في كل الشعوب والمجتمعات، وأن البحث والمعالجة له يجب أن يكونا ممتدين ومتسعين بقدر امتداده وتعدده، وأن يكونا شاملين له في مواقعه ومنابعه، فإنّ المعالجة هنا تقتصر على التطرُّف الذي أثمر عُنفاً، وعنفاً مضاداً في أكثر بلاد العرب والمسلمين، أو المأهولة بجماعات أو أفراد منهم، وذلك لسببين:

الأول: أن معالجة هذه الحالة في جميع مواقعها تستدعي مساحة من البحث لا يتسعُ لها نطاقُ هذه الدراسة.

الثاني: أن الحاجة إلى معالجة هذا الأمر عند المسلمين أوجب، وإلحاحها أشد، وذلك لما عرّض المسلمين له من ويلات، ولما تعرضوا بسببه من تجنّ من الآخرين، فأخِذَ الكثرةُ بخطأ القلة، وعُمِّمَ شططُ المشتطِّ – وهو عددٌ قليلٌ – على إحسانِ المعتدلِ والبريءِ، بل والمنكِرِ والمقارِمِ، وهم العددُ الأكبرُ والأكثرُ.[1]

هذا.. وسأكتفي في هذا المقام بهذه اللمحة عن التطرف في معناه العام، فأقول:

التطرُّف خبز عالمي:

لا ينفرد بالتطرُّف شعبٌ دون سواه، ولا طائفة من البشر دون غيرها، ولا أتباعُ دين بعينه أو معتنقو مذهب سياسي أو اجتماعي واحد، ولم تعرف دفاترُ التاريخ ثقافة واحدة خلت من أفراد زرعوا فيها ما يوقِظُ الصراع أو يشعله بسبب تطرفهم.

وُجد التطرف في كل الشعوب، ومورس من قِبَل أفراد وجماعات من أتباع كل الديانات والمذاهب على اختلاف أطيافها.

فالبوذية التي عُرفت منذ (2500) عام أو نحوها بدعوتها إلى التسامح لم تمنع أتباعها من توظيف معتقدها في حشد الجيوش في القديم والحديث لاستبقاء مصالحها ومحاربة جيرانها، ولم يتوَّرع اليابانيون عن توظيف المعتقد نفسه لدفع مجتمعهم إلى الحروب التي خاضوها في أوائل القرن المنصرم.

ومن المرجّح أنه لم تكن لتشتعل الحروب الصليبية أو لم تكن كما كانت عليه من العنف والاتساع لولا تطرُّف بطرس الناسك، وتطرف بعض سلاطين السلاجقة من المسلمين.

وليس من المظنون أن تشتعل الحربان العالميتان الاولى والثانية بما أدّت إليه من كوارث كونية لولا التطرُّف الشديد الذي تنطوي عليه الأفكار النازية والفاشية.

وليس الخوارجُ في تاريخ المسلمين ولا أتباع بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة إلا بعض التعبير والترجمة لذلك التطرُّف المدمر.[2]

نماذج تاريخية عن عواقب التطرف:

لم يزدحم التاريخُ من مسارِه الطويل بشواهدَ دالةٍ على ظاهرة معينة كما ازدحم بالشواهد الدالة على مثل هذا السلوك في الماضي والحاضر، فلا تزالُ هذه الظاهرةُ هي الوقودَ الذي يشعِلُ وجدان وانفعالات بعض الأفراد والجماعات.

فأفكار جماعة إعادةِ البناء (Reconstruction) كانت الينبوعَ الذي استمد منه مايك بري دافعَه لإحراقِ عيادةِ الإجهاضِ في مدينة دلوير(11).

وباروخ غولدشتاين (Baruch Goldstein) الذي وجدَ في قتل عشرات المسلمين بينما كانوا يؤدون صلاة الفجر في الحرم الإبراهيمي في الخليل في شهر رمضان عام (1994م) شيئاً من النشوة الروحية نشأ في مدينة بروكلين، وكان طبيباً تلقَّى تعليمه في كلية ألبرت آنشتاين (12).

والقس بنهو إيفر (Bonho Effer) ترك منصبَه وعمله في نيويورك، وعاد إلى ألمانية ليشتركَ في محاولةٍ لم تنجح لاغتيال هتلر (13).

والذي قام باغتيال أنديرا غاندي – أحدُ القائمين على حمايتها – من أتباع طائفة السيخ.

وياغال أمير (Yagal Amer) الذي اغتال إسحاق رابين من جماعة تعمل على إعادة بناء الهيكل في القدس، ومن أتباع الحاخام مئير كاهانا (Meir Khan)مؤسس الجناح اليميني لحزب كاخ (Kaho) (14).

وتوم هارتلي (Tom Hartley) رئيس حزب سياسي كاثوليكي، وغريمه البروتستانتي إيان بزلي (Ian Pasley) وهو من اتخذ العاملَ المذهبيَّ وقوداً للصراع بين الفريقين المتصارعين في إيرلندة الشمالية، وهو عضو في البرلمان البريطاني، وممثِّلٌ لبلادِه في البرلمان الأوروبي (15).

والذين قاموا بإطلاق الغاز القاتل في قطار الأنفاق بمدينة طوكيو شبابٌ لم تمنعْهم ثقافتُهم العلمية الجامعية ممّا أقدموا عليه، لأنهم واقعون تحت تأثير العقيدة الهندوسية البوذية (16).

وخالد الإسلامبولي الذي قام باغتيال الرئيس أنور السادات كان من الضباط في الجيش المصري. وما يحدُث في العراق منذ عامين أو أكثر نوعٌ من الإعصار المدمِّر يوزع ضرباته بالتساوي بين المخالفين له في الدين والمتفقين معه.

وإذا اختلفت أديان وثقافات وأعراق من اقترفوا هذه الأحداث فقد تباينت أعراقُ وديانات وثقافاتُ من وقعت هذه الأحداث عليهم.

إنّ قائمة طويلة من البشر فقدوا حياتهم أو أمنهم بسبب التطرُّفِ أو الهوى من كلِّ الأعراق والثقافات، وليس سقراط، وابن المقفع، والجعد بن درهم، والحلاّج، ولسان الدين ابن الخطيب، وموسى بن ميمون، وباندت سبينوزا، وموسى مندلسون، وغاليلي، وجان جاك روسو، وجون لوك، وبرونو، وجان دارك، والمهاتما غاندي، إلا أمثلة قليلة لضحايا الأهواء السياسية أو التطرُّف الأعمى إذا كان من الممكن أن يكون في التطرف بصيراً. [3]

المبحث الأول: ظاهرة التطرف؛ أنواعها؛ أسبابها وآثارها:

المطلب الأول: حقيقة التطرف الديني ومعياره:

نستهل هذا الحوار بالسؤال عن حقيقة التطرف الديني، وعن معياره في ضوء الأصول والقواعد الدينية المعتبرة؟

تعريف التطرُّف:

– التطرف في اللغة معناه: الوقوف في الطرف، إذا فهو يقابل التوسط والاعتدال، (*) قال الشاعر:

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفَا

فهو على هذا يصدق على التسيب كما يصدق على المغالاة، وينتظم في سلكه الإفراط والتفريط على حد سواء، لأن في كل منهما جنوحا إلى الطرف، وبعدا عن الجادة والوسط. [4]

ما نعنيه في هذا البحث بالتطرف هو " الشططُ في فهمِ مذهبٍ أو معتقد أو فلسفة أو فكرٍ، والغلوُّ في التعصُّب لذلك الفهمِ، وتحويلُه إلى حاكمٍ لسلوكِ الفرد أو الجماعة التي تتصف به، والاندفاع إلى محاولة فرض هذا الفهم والتوجُّه على الآخر بكلِّ الوسائل ومنها العنف والإكراه ". [5]

أنواع التطرف:

إن كل من التفريط والغلو في الدين يكون في العقائد والمفهومات الدينية الأساسية، وفي الأحكام التشريعية، وفي السلوك الديني، وفي الولاء للدين أو باسم الدين.

1. تطرف التسيب والتفريط في الدين:

قد دأب المفكرون المعاصرون على الحديث عن التطرف في أحد شقيه فحسب، فتحدثوا عن تطرف المغالاة والافراط، وأغفلوا أو تجاهلوا الحديث عن تطرف التسيب والتفريط، ربما لأن هذا الأخير لا يثير حساسية المجتمع ولا قلق الدولة، وقد أدى هذا التجاهل إلى تكريس التطرف الأول واستعار فتنته. [6]

يكون التفريط في الدين:

- بتقليص حدود الله، والنقْصِ من مساحة حقوق الدين.
- بمجافاة هذه الحدود، وبعدم القيام بحق ما من حقوق الدين.
- بعدم الاهتمام بالمحافظة على حدود الله، وعدم الرغبة بالتزامها.
- عدم القيام بحقوق الدين وواجباته، من ضعف الانتماء إلى الدين، أو الولاء له، أو من انعدامهما.

سبب التفريط في الدين:

تناقص الإيمان إلى درجة الصفر، أو إلى غيبوبته عن تصوّر العامل المؤثر.

والتفريط في الدين إن لم يكن من مستوى الكفر والجحود فهو اتباع للهوى، وحب للعاجلة، وتركٌ للآخرة.

2. تطرف الإفراط: الغلو في الدين:

يكون الغلو في الدين بتجاوز حدود الله فيه، توسعا في مساحة الدين المحددة بهذه الحدود.

فالغلو في الدين خروج عن حدود الدين، مع زعم الانتماء إليه، وشدة الولاء له، ويكون من سوء التصور وفساده، أو من الكيد ضد الدين، والمكر به.

ويصحب الغلو دائما جهلٌ وتعصب وهوى، وتُزَيِّنه وساوس الشياطين، وتلبيسات إبليس.

أسباب الغلو في الدين:

- المبالغة في الاندفاع القوي دون بصيرة، بغية السبق للظفر بأعلى الدرجات في الدين، ويرافق هذا الاندفاع حركة متسرعة هوجاء، يكون معها قفز أرعن، وتعمق غير محمود، واضطراب في الرؤية، وفساد في تصور الحقيقة.
- سوء فهم حقيقة الدين، إما من اجتهادات المغالي نفسه، أو من اجتهادات إمامه وقائده الذي يتبعه، ومن ذلك إدخال الرأي الشخصي في قضايا الدين وأحكامه وشرائعه، وجنوح الفكر عن الرؤية الصحيحة لحدود الدين.
- الرغبة في احتلال مراكز الاحترام والتقديس، تأتي رغبات أخرى، منها منافع دنيوية مالية وغيرها، وبعض الغلو يكون بمثابة ستور مصطنعة لإخفاء قبائح ومعاصي هي من كبائر الإثم.
- بعض الغلاة منافقون كفرة، مندسون لإفساد مفاهيم الدين والتحريف فيها. [7]
- بعض الجماعات المتطرفة شبابا مخلصين، لا يريدون إلا وجه الله، والدار الآخرة، ونُصرة الإسلام، ولكنهم لم يتحصنوا بثقافة إسلامية أصيلة وفقه إسلامي عميق، فصادفت هذه الأفكار قلوبا خالية، فتمكنت منها.. [8]

أمثلة الغلو:

- ومن الغلو السفر للحج كل عام، والغلو بأداء العمرة وتكريرها كثيراً، وبذل الأموال في هذا السبيل، مع أن مجالات إسلامية كثيرة بحاجة ماسة إلى هذه الأموال لنشر دين الله، وبثّهِ بين الناس، وتعليم الجاهلين به، كما أن مؤسسات خيرية كثيرة تحتاج إليه، وإقامتها أنفع للمسلمين وأَحبُّ عند الله وأفضل.
- ومن الغلو الحرص على تقبيل الحجر الأسود، مع ارتكاب معصية الله عز وجل في مدافعة المسلمين والمسلمات وإيذائهم.
- ومن الغلو في السلوك الديني، صيام الدهر، أو ترك الزواج. [9]

المطلب الثاني: أدلة النهي عن التطرف من الكتاب والسنة:

إن الحقائق الشرعية حلالَها وحرامَها، وواجبها ومندوبها، ومكروهها: ذوات حدود:

- فالنقض عن هذه الحدود تفريط.
- والزيادة على هذه الحدود غلو.
- والانحراف عنها في العمل معصية.
- والتغيير في هذه الحدود الدينية أو إدخال مفاهيم ما أنزال الله بها من سلطان، ابتداع وتحريف. [10]

قال الإمام ابن تيمية [11]:

" فإن أقواما استحلوا بعض ما حرّم الله، وأقواماً حَرَّمُوا بعض ما أحَلَّ الله، وكذلك أقوامٌ أحدثوا عباداتٍ لم يشرعها الله، بل نهى عنها.

وأصل الدين ان الحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرامَ ما حَرَّمَهُ الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، ليس لأحد أن يَخْرُج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله "

واستشهد رحمه الله بقول الله عز وجل في سورة الأنعام:

{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

وعقب بقوله: "وفي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنهمَا قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. [12]

وقال رحمه الله في موضع آخر [13]:

" ولا يجوز أن يقال إن هذا مستحب أو مشروع إلا بدليل شرعي، ولا يجوز أن يثبت شريعة بحديث ضعيف، لكن إذا ثبت أن العمل مستحب بدليل شرعي، وروي له فضائل بأسانيد ضعيفة جاز أن تُرْوى إذا لم يُعلم أنها كذب، وذلك أن مقادير الثواب غير معلومة، فإذا رُوِي في مقدار الثواب حديث لاَ يعْرَفُ أَنَّهُ كذِبٌ، لم يَجُزْ أَنْ يُكَذَّب به.

وهذا هو الذي كان الإمام أحمد بن حنبل وغيرُه يُرَخِّصُونَ فيه، في رواية أحاديث الفضائل، وأمّا أن يُثْبِتُوا أَنَّ هذا عملٌ مُسْتحب مشروع بحديث ضعيف، فحاشا لله.

وما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه التعبد فهو عبادة يُشْرَعُ التأسّي به فيه، فإذا خُصِّصَ زمان أو مكان بعبادة كان تخصيصُه بتلك العبادة سُنة".

وقال رحمه الله في موضع آخر [14]:

" قول بعض الناس: " (الثواب على قَدْر المشقة) ليس بمستقيم على الإطلاق، كما قد يستدل به طوائف... مثل التعمق والتنطع، الذي ذمّه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: " هَلَكَ المتَنَطّعُون".

مثل الجوع والعطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه... "

واستدرك ابن تيمية رحمه الله فذكر أن العمل المطلوب شرعا قد لا يتحقق إلا بمشقة زائدة لظروف طارئة أو أصلية، وفي هذه الحالة يزيد الأجر بمقدار زيادة المشقة. [15]

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المتنطعين بالهلاك: التنطع في أداء العبادات الشرعية، أو مصادرة اجتهادات الآخرين في المسائل الاجتهادية، أو تجاوز الحدود الشرعية في التعامل مع المخالف والتنطع في أداء العبادات هو التعمق أو مجاوزة الحد في الأقوال والأفعال، ويدخل فيه الزيادة على المشروع، والتزام ما لم يلزم به الشارع، والورع الفاسد، ونحوه، فلقد أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قول النبي صلى الله عليه وسلم: " هلك المتنطعون " قالها ثلاثا.

الأصل في التنطع: أنه التعمق في الشيء، والمتنطعون هم المتعمقون الذين يخرجون عن حد الاتزان، والدعاء عليهم في الحديث الشريف بالهلاك، دلالة على ذم ما هم فيه من حال التنطع، أو هو إخبار عن هلاكهم في الآخرة كما قال بعض العلماء.

وأخرج الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم حين وصل على المزدلفة في حجة الوداع قال لابن عباس: " هلم القط لي " – أي حصيات يرمي بهن الجمار في منى –. قال: فالتقط له حصيات من حصى الخذف (أي حصى

صغارا مما يخذف به) فلما وضعهن في يده قال: "نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين" [16] وهو نهي عام عن جميع الغلو في الاعتقادات والأقوال والأعمال.

ويدخل في هذا ما نشاهده من بعض الحجيج أثناء رمي الجمار حيث يتعمد بعضهم الرمي بالأحذية والبصق على موضع الرمي والتفوه ببعض العبارات المنكرة وغير ذلك من صور الغلو التي لا تتفق مع جلال هذه المواقف فضلا عما تتضمنه من الايذاء لبقية إخوانه من الحجيج.

الغلو في الأحكام التشريعية:

يكون الغلو في الأحكام التشريعية بالتحريم من غير دليل كاف للتحريم، وبالإيجاب والفرضية، من غير دليل كاف للإيجاب والفرضية، فقد يكون الدليل – إن صح – لا يعطى أكثر من حُكم الندب أو الكراهة.

أما تجاوز الحدود الشرعية في الإنكار على المخالف فهو ألا يفرق بين مجمع عليه وبين مختلف فيه...

هذا، ولا تعد مصادرة اجتهادات الآخرين من قبيل التطرف إلا في المسائل الاجتهادية، أما ما كان من المحكمات والمعلوم بالضرورة من الدين فلا محل فيه للاجتهاد، ولا سبيل للمسلم معه إلا التسليم والانقياد، ولا عبرة فيه بشذوذ الآراء ولا بشطحات الأهواء، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْراً اَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْۗ وَمَنْ يَّعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَد ضَلَّ ضَلَٰلاً مُّبِينا} (الاحزاب: 36). [17]

- إن الورع يكون بالتزام بترك المكروه عملاً، وبالمواظبة على فعل المندوب إليه عملاً، دون رفع أحكامهما عن مستواها الذي دلت عليه أدلة استنباط الأحكام الشرعية.
- ومن الملاحظ أن كثيرا من القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُصدّرون أحكاماً دينية يحرّمون فيها أعمالاً، أو يوجبون فيها أعمالاً، وهذه الأحكام ما أنزل الله بها من سلطان، إنما يتَبعُون فيها شبهات أدلة، أو هوى نفس، فإمّا أن يعتمدوا على تفسير خاطئ، او بحث ناقص، أو حديث ضعيف، أو حديث مُعارضٍ بدليل أقوى منه.
- وذلك من عدم الأهلية الكافية للإذن بالاجتهاد في استنباط أحكام الدين.
- ومن هؤلاء من يتوهم أنه لا بأس بتحريم المكروه، أو إيجاب المندوب إليه، ويَرَوْن هذا التشدد يَخْدُم الدين، مع أن في هذا العمل لدى التحقيق والتدقيق تحَنّياً على دين الله، وتعدّياً لحدود أحكام الله، وقد ثبت في الصحيح من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:
- " يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا، ولا تُنَفِّرُوا. ". [18]
- ومن الغلو التعصب المذهبي، أو التعصب للرأي الاجتهادي الذي يتوصل إليه المأذون بالاجتهاد، مع وجود مذاهب أخرى معتبرة، تقول بخلاف رأي المذهب.

المطلب الثالث: معيار التطرف؛ آثاره؛ وصفات المتطرف:

ما هو معيار التطرف؟

ذكرت أن التطرف يقابل الاعتدال والتوسط، فما هو معيار ذلك الاعتدال؟ أهو التزام الشرعية القانونية وطاعة أولي الأمر مهما كان اتفاقها أو اختلافها مع الدين؟ أم التزام الشرعية الإسلامية وإتباع ما يقضى به الدين؟

إن هذا الحوار معقود أساسا للحديث عن التطرف الديني، فالمرجع في تحديده إذن إلى الدين، ولا دخل للشرعية الوضعية في ذلك، فالذي يقرر أن هذا تطرف أو اعتدال إنما هو الشارع لا غير، وقد تمهد في محكمات الشريعة أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الشرع لا غير، وأن الذي تفرد بالحق في توجيه الخطاب الملزم المتعلق بأفعال المكلفين طلبا أو تخييرا أو وضعا إنما هو الله رب العالمين، وأن طاعة أولي الأمر ليست مطلقة لأن الطاعة المطلقة لا تكون إلا للشارع لا غير، أما أولوا الأمر فقد قيد الشارع طاعتهم بما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة، إذ لا طاعة لمخلوق في معطية الخالق قال صلى الله عليه وسلم: " لا طاعة لأحد في معطية الله، إنما الطاعة في المعروف " (متفق عليه) وقال: " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " [19] وقال صلى الله عليه وسلم: " لا طاعة لمن لم يطع الله" [20]. [21].

اثار التطرف:

مع أن كلا من التطرُّف والتعصُّب والغلوّ يحمل مدلولات واحدة أو متقاربة عند كثير من الناس، فإن الأقربَ إلى الصواب هو أنَّ التعصب والغلوَّ فرعانِ لشجرة التطرُّف، إذ من المتعذر أن يوجد متطرِّفٌ غير غالٍ أو متعصّب لما يعتنقُ من معتقد ديني أو سياسي أو اجتماعي أو عرقي، أي لن يكونَ ذا اعتدال، كما لا يوجد غلو أو تعصب إلا بسبب ما هو عليه من تطرّفٍ في رأيه أو موقفه، ويمكن أن يجمع هذه الصفات الثلاث تعبيرُ عدم الاعتدال، ويشملها جامعٌ واحد هو أنَّ أيّاً منها ثمرة من ثمار معتقد.

فالمعتقدُ لدى فئة من الناس يُدخِلُ صاحبَه في سباتٍ قلَّ أن يفيق منه، فهو عاملٌ أول آثاره أن يكفَّ العقلَ عن عملِه، فلا يعملُ، بل إنَّه يجعل العقل خادماً لما تمليه مشاعر ذلك الفرد وانفعالاته وعاطفته، فهو يجهد في حشد كلِّ الحسنات لذلك الرأي أو المذهب أو المعتقد إن وُجدت لأي واحد منهم حسناتٌ، أوقد يختلقها أو يتخيَّلها إن لم توجد.

أقوى أثرِ بعضِ المعتقدات المذهبية وأخطرُها ما يجعلُ صاحبَه يُقدِمُ على أكثرِ الأشياء خطراً وترويعاً للفرد أو الجماعة في بسالةٍ، وقد يقترِفُ أكثرِ الأفعالِ ضرراً، وهو على بساطٍ وثيرٍ من راحة الضمير، لأنه يعتقد جازماً انه يقومُ بعملٍ يقرّبه من الله، أو ممّا يقتضيه الواجب. [22]

فإن المعالجات التأصيلية لقضايا المنهج القويم في الاعتقاد والفكر والفقه والآداب والسلوك لم تعد من نوافل الجهود أو هوامش الاهتمامات، بل أضحت مطلبا ضروريا ملحا وحاجة مصيرية لتوجيه المسيرة وتقويم من انحراف عن النهج المستقيم خاصة في هذا العصر. [23]

إن مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم، قضية العنف والغلو والتطرف التي عصفت زوابعها بأذهان البسطاء من الأمة وجهالها، وافتتن بها أهل الأهواء الذين زاغت قلوبهم عن اتباع الحق، فكانت النتيجة الحتمية أن وقع الاختلاف بين أهل الأهواء وافترقوا إلى فرق متنازعة متناحرة همها الأوحد إرغام خصومها على اعتناق آرائها بأي وسيلة كانت، فراح بعضهم يصدر أحكاماً ويفعل إجراما يفجرون ويكفرون ويعثون في الأرض فسادا ويظهر فيهم العنف والتطرف إفراطا وتفريطا: إنها فتنة عمياء تستوجب التأمل وتستدعي التفكير في الكشف عن جذورها في حياة المسلمين المعاصرين، وهذا يعد من أهم عوامل التخلص من الخلل الذي أثقل كاهل الأمة وأضعف قوتها وفرق كلمتها. [24]

أما مصادرة اجتهادات الآخرين في المسائل الاجتهادية فهي التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود:

فقوله هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، وقول غيره هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب، وهو مع الناس كالمشرق مع المغرب لا تقترب من أحدهما إلا بمقدار ما تتباعد مع الآخر، من خالفه في الرأي فهو جاهل مبتدع ومن خالفه في السلوك فهو فاسق عاص، فهو الناطق الرسمي باسم الحق، المتحدث الرسمي بلسان الإسلام، لا يقيم وزنا لاجتهاد مخالف ولو أوفى أصحابه على الغاية في العلم والديانة...

وقد أكد أهل العلم على عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية إنكارا يؤدي إلى التشنيع على المخالف أو التثريب عليه بالهجر ونحوه، وأن الخلاف في الفروع أكثر من أن ينحصر، ولو أن كل مسلمين اختلفا في مسألة تهاجرا وتدابرا لم يبق بين المسلمين عصمة و لا أخوة قط، ولا يزال أهل العلم يفرقون بين الشرع المحكم وهو الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وبين الشرع المؤول وهو اجتهادات أهل العلم فيما وراء ذلك من الظنيات وموارد الاجتهاد، ويبينون أن الأول هو الذي لا يحل لأحد مخالفته، وهو الذي تنتصر له سيوف المسلمين ومن نازع في شيء منه فقد اتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين، أما الثاني فالأصل أنه لا يضيق فيه على المخالف، وأن من عمل فيه بأحد الرأيين لم ينكر عليه ولم يهجر... [25]

صفات المتطرّف:

من صفات المتطرّف الظاهرة: سرعةُ الانفعالِ، والتوتر، وفورةُ العاطفةِ، وهو غالباً سريعُ التصديق لما يسمَعُ، وسهلُ الاقتناعِ والاتباع لما يُوجَّه إليه، وعلى الأخصّ إذا سمعَ القولَ أو جاءَ التوجيهُ ممّن يطمئن إلى صدقه، أو يُعجَبُ بمسلكه، وبقدر قربه من التصديق والوثوق يكون بعدُه عن القدرةِ على محاكمةِ الأفكارِ والمواقفِ، وتفحُّص المذاهب والمعتقدات، وليس من طبيعةِ المتطرّفِ التحليلُ والتعليلُ والموازنةُ.

وهو في انحيازِه إلى فكرٍ أو مذهب أو معتقد يُفرِطُ في موالاته لما ينحازُ إليه ومَنْ ينحازُ إليه إفراطاً يمنعُه من وضعِه موضعَ التحليل أو المساءلة، إذ إنّه يعتقد اعتقاداً جازماً أنّ فهمَه وموقفَه هو الصواب الذي لا خطأ فيه، والحقُّ الذي لا باطل معه، ولا يرى في جانب المخالِفِ له حقّاً يجبُ أن يسعى إليه، أو صواباً ينتفع به.

على أنَّ ذلك لا يعني أنَّ المتطرف – بالضرورة – شريرٌ بطبعِه، فهو يتوجَّه في كثيرٍ من حالاته بدوافع يعتقد قدسيتَها أو نبلَها.

وظهورُ التطرف أو انتشارُه لا يتوقف على عامل واحدٍ أو سببٍ مفردٍ فهو قد يظهر أو ينتشر أو يتنقل من حالةٍ إلى أخرى بسبب ديني أو عرقي أو سياسي أو اجتماعي أو غير ذلك من المسببات. [26]

وأكثر ما يكون غُلو الغلاة في الشكليات والظواهر:

كالغلو في الطهارة الحسية، وهم كثيرا ما يتهاونون في أمور هي من الكبائر المجمع على تحريمها، وعلى أنها من الكبائر، ولا يُشددون في التحذير منها، كالغيبة، والنميمة، والقذف، والحسد المحرم، والتماس العيوب للبرآء، أو افترائها عليهم، وتدبير المكايد ضد خصومهم من المؤمنين، وإثارة الفتن بين المسلمين، وأكل أموال الناس بغير حق، وقبول الرشاوى، ومنع الزكاة، وجفاف العاطفة على الفقراء وذوي الحاجات، إلى غير ذلك من أمور كثيرة هي من الدين بمثابة الأسس والقواعد والأركان. [27]

المبحث الثاني: ظاهرة التكفير؛ خطورتها؛ والصلة بينها وبين ظاهرة التطرف:

المطلب الأول: القواعد الثمانية: بماذا يدخل الإنسان في الإسلام ؟:

وجوب الرجوع إلى القرآن والسُنَّة:

ومن هنا يجب أن نرجع إلى النصوص من القرآن والسنة، لنقرر في ضوئها القواعد أو الحقائق الشرعية التي يجب الاحتكام إليها في مثل هذا الموضوع الخطير في دين الله، وفي حياة الناس.

واعتمادنا الكلى إنما هو على النصوص الثابتة المعصومة من كتاب الله وسنة رسوله، فهي وحدها الحجة والعمدة بلا نزاع.

وإذا استشهدنا بأقوال بعض العلماء، فليس ذلك لاعتبار أقوالهم حجة بنفسها، ولكن لنستأنس بفهمهم للنصوص، حتى لا نتيه في المتشابهات، أو نضرب الآيات والأحاديث بعضها ببعض. مع تأكيد أصل مهم هنا، وهو أن سَلف الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان هم أهدى هذه الأمة سبيلاً، وأصحها أفهاماً، وأقومها طريقا، وأفقهها لروح الإسلام، وأحرصها على اتباعه. فمهما وجدنا من هَدياً معروفاً لم نعدل عنه إلى ابتداعات مَن بعدهم، فهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير القرون. [28]

بماذا يدخل الإنسان في الإسلام ؟:

الحقيقة أو القاعدة الأولى:

أن الإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فمَن أقر بالشهادتين بلسانه فقد دخل في الإسلام، وأُجريت عليه أحكام المسلمين، وإن كان كافراً بقلبه، لأنَّا أمرنا أن نحكم بالظاهر، وأن نَكِلَ إلى الله السرائر.

1. أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الإسلام ممن أقر بالشهادتين، ولا ينتظر حتى يأتي وقت الصلاة، أو حول الزكاة، أو شهر رمضان.. مثلاً. حتى يؤدي الفرائض، ثم يُحكم له بالإسلام. يُكتفى منه بالإيمان بها، وألا يظهر منه إنكارها.
2. حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عند البخاري وغيره: أنه قتل رجلاً شهر عليه السيف، فقال: " لا إله إلا الله " فأنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم أشد الإنكار، وقال: أقتلتَه بعد أن قال "لا إله إلا الله"؟ فقال: إنما قالها تعوذاً من السيف؟ فقال: هلا شققت عن قلبه. وفي بعض الروايات: كيف لك ب " لا إله إلا الله " يوم القيامة؟.
3. حديث أبي هريرة: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ". (متفق عليه).

وفي رواية لمسلم: " حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به ".

وفي البخاري عن أنس مرفوعاً: " حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ".

والمراد ب " الناس " في الحديث مشركو العرب، كما قال العلماء، وكما فسَّره أنس في حديثه، لأن أهل الكتاب يُقبل منهم الجزية بنص القرآن.

والشاهد هنا: أنهم إذا قالوا لا إله إلا الله، دخلوا بها في الإسلام، بدليل عصمة دمائهم وأموالهم، لأن العصمة إما بالإسلام أو بالعهد والذمة، ولا عهد ولا ذمة هنا، فلم يبق إلا الإسلام. [29]

من مات على التوحيد استوجب الجنة:

القاعدة الثانية:

أن من مات على التوحيد – أي على: لا إله إلا الله – استحق على أمرين:

1. النجاة من الخلود في النار...
2. دخول الجنة لا محالة، وإن تأخر دخوله...

والدليل على ذلك أحاديث صحاح مشهورة في الصحيحين وغيرهما من دواوين السُنَّة. منها:

في الصحيحين من حديث أبي ذر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أتاني جبريل فبشرني: أنه مَن مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: وإن زَنِيَ وإن سرق؟ قال: وإن زَنِيَ وإن سرق ".

والمراد بدخول الجنة: دخولها ولو في النهاية، بعد استحقاق العذاب في النار زمناً ما.

وكذلك المراد بالنجاة من النار: النجاة من الخلود فيها... [30]

نواقض الإسلام:

القاعدة الثالثة:

أن الإنسان بعد أن يدخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين، يصبح – بمقتضى إسلامه – ملتزما بكافة أحكام الإسلام، والالتزام يعني الإيمان بعدالتها وقدسيتها، ووجوب الخضوع والتسليم لها، والعمل بموجبها أعنى الأحكام النصية الصريحة الثابتة بالكتاب والسُنَّة.

فليس له الخيار تجاهها بحيث يقبل أو يرفض ...

يقول تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُومِن وَلَا مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْراً اَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْۗ} (سورة الأحزاب: جزء من الآية: 36).

{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُومِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَۖ ٥١} (سورة النور: 49).

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُومِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِےٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيما} (سورة النساء: الآية: 64).

ومن المهم أن نعرف هنا، أن من أحكام الإسلام من الواجبات والمحرَّمات والعقوبات وغيرها من التشريعات، ما ثبت ثبوتا قطعياً، وأصبح من الأحكام اليقينية، التي لا يتطرق إليها ريب ولا شبهة، أنها من دين الله وشرعه، وهي التي يطلق عليها علماء الإسلام اسم " المعلوم من الدين بالضرورة ".

وعلامتها أن الخاصة والعامة يعرفونها، ولا يحتاج إثباتها إلى نظر واستدلال، وذلك مثل فريضة الصلاة والزكاة وغيرها من أركان الإسلام، وحرمة القتل والزنا وأكل الربا وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، ومثل الأحكام القطعية في الزواج والطلاق والميراث والحدود والقصاص وما شابهها.

فمن أنكر شيئا من هذه الأحكام " المعلومة من الدين بالضرورة " أو استخف بها واستهزأ، فقد كفر كفراً صريحاً، وحُكِمَ عليه بالرِدَّة عن الإسلام. وذلك أن هذه الأحكام نطقت بها الآيات الصريحة، وتواترت بها الأحاديث الصحيحة، واجمعت عليها الأمة جيلاً بعد جيل، فمن كذَّب بها فقد كذَّب نص القرآن والسُنَّة، وهذا كفر.

ولم يستثن من ذلك إلا من كان حديث العهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة عن أمصار المسلمين، ومظان العلم، فهذا يُعذر إذا أنكر هذه الضروريات الدينية، حتى يعلم ويفقه في دين الله، فيجري عليه بعد ذلك ما يجري على سائر المسلمين. [31]

كبائر المعاصي التي تنقض الإيمان ولكنها لا تهدمه:

القاعدة الرابعة:

أن المعاصي والكبائر – وإن أصر عليها صاحبها ولم يتب منها – تخدش الإيمان وتنقصه، ولكنها لا تنقضه من أساسه ولا تنفيه بالكلية. [32]

ما عدا الشرك فهو تحت إمكان المغفرة:

القاعدة الخامسة:

وهي تأكيد للقاعدة السابقة – أن الذنب الذي لا يُغفر هو الشرك بالله تعالى، وما عداه من الذنوب – صغرت أو كبرت – فهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. [33]

قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا} (سورة النساء: الآية).

قال الحافظ ابن حجر: لأن من جحد نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم مثلاً، كان كافراً، ولو لم يجعل مع الله إلهاً آخر، والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف. [34]

انقسام الكفر الوارد في النصوص إلى أكبر وأصغر:

القاعدة السادسة:

أن الكفر في لغة القرآن والسنة، قد يُراد به الكفر الأكبر، وهو الذي يُخرج الإنسان من المِلَّة بالنسبة لأحكام الدنيا، ويوجب له الخلود في النار بالنسبة لأحكام الآخرة، فالكفر بهذا المعنى: هو الإنكار أو الجحود المتعمد لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أو بعض ما جاء به، مما علم من دينه بالضرورة.

وقد يُراد به الكفر الأصغر، وهو الذي يوجب لصاحبه الوعيد دون الخلود في النار، ولا ينقل صاحبه من ملة الإسلام، إنما يدمغه بالفسوق أو العصيان، فالكفر بهذا المعنى: يشمل سائر المعاصي التي يخالف بها أمر الله تعالى، أو يرتكب بها ما نهى عنه. [35]

اجتماع بعض شُعب الإيمان مع شُعب الكفر أو النفاق أو الجاهلية:

القاعدة السابعة:

أن الإيمان قد يجامع شُعبة أو أكثر للكفر أو الجاهلية أو النفاق.

وهذه حقيقة قد خفيت على كثيرين في القديم والحديث.

ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه: " إنك امرؤ فيك جاهلية " هذا وهو أبو ذر في سابقته وصدقه وجهاده. [36]

تفاوت مراتب الأُمة في الطاعة:

القاعدة الثامنة:

هي تأكيد للسابعة –: أن مراتب الناس متفاوتة في امتثالهم لأمر الله تعالى، واجتنابهم لنهيه. [37]

المطلب الثاني: خطورة التكفير:

عواقب الحكم بالتكفير:

والذي ينبغي أن نؤصله هنا: أن الحكم بالكفر على إنسان ما، حكم جد خطير، لما يترتب عليه من آثار هي غاية في الخطر. منها:

1. أنه لا يحل لزوجته البقاء معه.
2. أن أولاده لا يجوز أن يبقوا تحت سلطانه.
3. أنه فقد حق الولاية والنُّصرة على المجتمع الإسلامي بعد أن مرق منه، وخرج عليه بالكفر الصريح، والردّة البواح، ولهذا يجب أن يُقاطع، ويُفرض عليه حصار أدبي من المجتمع، حتى يفيق لنفسه، ويثوب إلى رشده.
4. أنه يجب أن يُحاكم أمام القضاء الإسلامي، لينفذ فيه حكم المرتد، بعد أن يستتيبه ويزيل من ذهنه الشبهات ويقيم عليه الحجة.
5. أنه إذا مات لا تجري عليه أحكام المسلمين، فلا يُغَسَّل ولا يُصلَّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولا يُورث، كما لا يرث إذا مات مُوَّرِث له.
6. أنه إذا مات على حاله من الكفر يستوجب لعنة الله وطرده من رحمته، والخلود الأبدي في نار جهنم.

وهذه الأحكام الخطيرة توجب على مَن يتصدى للحكم بتكفير خلق الله أن يتريث مرات ومرات قبل أن يقول ما يقول. [38]

أقوال علماء الإسلام عن خطورة التكفير:

نُقول عن المالكية:

وأما عن المالكية فاكتفى بهذا التحقيق عن الإمام الشاطبي:

فقد ذكر في "الاعتصام" أهل الأهواء والبدع، المخالفين للأمة من الخوارج وغيرهم، فقال:

" وقد اختلفت الأمة في تكفير هؤلاء الفِرق أصحاب " البدع العظمى " ولكن الذي يقوى في النظر، وبحسب الأثر، عدم القطع بتكفيرهم، والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم.

ألا ترى إلى صنع عليّ – رضي الله عنه – في الخوارج، وكونه عاملهم في قتالهم معاملة أهل الإسلام...

وعمر بن عبد العزيز أيضا لما خرج في زمانه الحرورية " الخوارج " بالموصل أمر بالكف عنهم، على ما أمر به عليّ رضي الله عنه، ولم يعاملهم معاملة المرتدِّين. [39]

نقول عن الشافعية:

قال ابن حجر الهيثمي في التحفة:

" ينبغي للمفتي أن يحتاط في التكفير ما أمكنه لعظيم خطره، وغلبة عدم قصده، سيما من العوام، وما زال أئمتنا (يعني الشافعية) على ذلك قديما وحديثا، بخلاف أئمة الحنفية، فإنهم توسعوا بالحكم بمكفرات كثيرة، مع قبولها التأويل، بل مع تبادره منها... "

وقد نُقِلَ عن الشافعي أنه قال: لا أرد شهادة أحد من أهل الاهواء – البدع – إلا الخطَّابية، فإنهم يعتقدون حل الكذب. [40]

المطلب الثالث: الصلة بين التطرف والكراهية والتكفير:

الكراهيةُ ترتبط بالتطرُّفِ ارتباطاً وثيقا، يصل أحيانا إلى الملازمة والاقتران، وقلّ أن يُخالِطَ متطرّفاً شعورُ محبةٍ لمن يخالف ما يذهب إليه من مذهب أو اعتقادٍ، فالكراهية إذن نبتة يمكِنُ أن تُغرس في الذات، وهي الوقود الذي يستغلّه الطامعون والمغامرون للوصول إلى غايتهم، فالكراهية هنا جاءت نتيجة للمعاداة، والتطرُّفُ من أسبابِ الكراهية والعواملِ الجالبة لها، وهذا أمرٌ مفهوم ومتوقّع، طالما أنّ المتطرّفَ يُلْبِسُ عقيدته أو مذهبَه أو موقفَه كلَّ صفات الحقِّ والكمال، ومن ثَمّ يخلَعُ هذه الصفات عن مَنْ يخالفه في موقفه أو معتقده، ويراه ضالاً أو شريراً، داعياً إلى باطلٍ أو مقاوماً للحقِّ والخير والفضيلة. [41]

ولهذا أُصرّ على القول بأنهم على الرغم من غلوهم وانحرافهم من جادة الصواب في أفكارهم. ويقيني أن الكثيرين منهم سيرجعون عن فكرتهم في التكفير إذا قرأوا ما كتبت بروح الحيدة والإنصاف، والإخلاص في طلب الحق، والبراءة من العصبية والتحرر من الخوف من ملامة زملائهم أو تهديد رؤسائهم، الذين يعتبرونهم " مُرْتَدّين " بمجرد اختلافهم معهم، أو رجوعهم عن رأيهم، ويفتون بوجوب قتلهم لأنهم بدَّلوا دينهم. [42]

اذن يمكن الاستنتاج: أن هناك علاقة بين التطرف والكراهية، ومن هذه العلاقةِ ينتج التكفير.

المبحث الثالث: ظاهرة التطرف والتكفير؛ الوقاية والعلاج:

المطلب الأول: الوقاية من ظاهرة التطرف والتكفير:

الوقاية خير من العلاج:

1. تحكيم الإسلام شريعة ومنهاجاً في حياة المسلمين، أفراداً، ومجتمعات، وأمة.

قال الله تعالى: {إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا} (سورة النساء، الآية: 104)، فالأصل في الأحكام الشرعية أنها لمصلحة الخلق، وتحقيق العدل، وحفظ التوازن في الحياة.

2. وجوب الاهتمام ببناء الفرد المسلم على أسس عقدية إيمانية؛ تعيد صياغة النفوس، وتفتح آفاق العقول، وتبث فيه روح الدين الحقيقي، وتؤصل العزة الإيمانية، وتمحور حياته حول هدف واحد، هو تحقيق العبودية لله بأبعادها كلها، وإعمار الأرض بشريعة الله. وتحقيق هذا مرتهن باتباع طريق الله المستقيم.

قال الله تعالى: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ}. (سورة الأنعام، الآية: 154)

3. نشر الوعي الديني والثقافة الشرعية بين عامة المسلمين وخاصتهم عن طريق الوسائل المتاحة كلها وربط المسلمين بدينهم، ولتحقيق التحصين الثقافي ضد الفكر الغازي.
4. إن مفتاح سعادة هذه الأمة مطوي في كتابها العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، إذن: فلا يمكن للمسلمين أن ينهضوا نهضة حقيقية إلا إذا أقبلوا عليه، واهتدوا بهديه واستضاءوا بنوره وساروا على دربه.

قال الله تعالى: {لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ} (سُورَةُ فُصِّلَتۡ، الآية: 41).

5. على العلماء أن يبذلوا جهودهم لترشيد مسيرة المسلم بتحصينه بالفكر الإسلامي الصحيح وحمايته من الأفكار الضالة الهدامة وتأصيل معاني الخير في نفسه ليكون عنصر بناء لا تخريب، وتطوير لا تدمير، واعتدال لا غلو، وأناة لا تسرع.[43]: إن ظاهرة التطرف والتكفير نتيجة لخلو الميدان من حركة إسلامية واعية ناضجة تعمل في النور جهرة، ويوم تشرق شمس الدعوة إلى الإسلام المتكامل، ويعلو صوتها بلا خوف لن يكون هناك مكان لأهل السراديب من الغُلاة والمتطرفين.[44]
6. الاعتدال في تربية الطفل، وعدم المبالغة في الحماية والتدليل أو الاهمال على حد سواء.
7. يجب على الآباء والأمهات تذكير الأبناء بثواب الآخرة، والبعد التام عن تفضيل أحد الأخوين على الآخر، إن التربية السليمة هي: العدل والمساواة، فالتفرقة في التربية يخلق عداوة وكراهية بين الأبناء.[45]
8. الحذر من الأحاديث الموضوعة، ومن التأويلات الباطلة للأحاديث الصحيحة.
9. الالتزام الديني منهج وسط لا تفريط فيه ولا غلُو: الإسلام دين الوسطية: الوسطية في كل شيء منهج رباني، ومطلب إنساني.

قال الله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا} (سورة البقرة، جزء من الآية: 142).

والوسطية تعني العدل والتوازن والحكمة، ووضع الأمور في مواضعها.[46]

ومن ذلك حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((إذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس الأعلى؛ فإنَّه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرشُ الرحمن، ومنه تَفجرُ أنهار الجنة)).[47]

ويقول – صلى الله عليه وسلم – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه –: ((إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغَدوة والروحة، وشيء من الدلجة))[48]؛ قال ابن حجر: "والمعنى: لا يتعمقْ أحد في الأعمال الدينيَّة، ويتركِ الرفق إلا عجز وانقطع فَيُغْلَب"، ثُمَّ قال: "قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة؛ فقد رأينا ورأى النَّاس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع".[49] [50]

المطلب الثاني: المعالجة الناجعة لظاهرة التطرف والتكفير:

بما أن التكفير نتيجة للتطرف، فإننا إذا قمنا بمعالجة التطرف، بالضرورة تعالج ظاهرة التكفير.

هل هناك من مخرج؟

التطرف وباءٌ عاناه البشرُ في ماضيهم ويعانونه في حاضرهم – وقد يعانونه في مستقبلهم – وهو بما يلازمه من تعصُّب وكراهية من أشدّ الأسباب في إشعال الحروب وإثارة المنازعات والمعاداة وتوريث ذلك.

ومن المؤكد أن العالم سيكونُ أكثر أمناً وأقلَّ شقاءً لو حلّ الاعتدال محل التطرف، وحكمةُ العقلِ محلَّ الانفعال.

أيُّ معالجةٍ ناجعة للتطرف تستهدف استئصالَ جذوره، لا تقليم أظفاره، والقضاء على مسبباتِه، لا على مظاهره، لن تفلِحَ في القضاء عليه إذا قَصَرَ تْ تعاملها مع هذا الحدث على بعضِ ظواهرِ النفس الإنسانية في مفرداتها، لا على طبيعة النفس في كليتها.[51]

عوامل العنف الناتج عن التطرف:

العنف الناتج عن التطرف لا يحدثه إلا عاملان: الأول: اقتناع عقل؛ الثاني: انفعال عاطفة.

1. في معالجة العامل الأول (اقتناع عقل):

يجب التذكر أن تحويل فردٍ أو جماعة عن معتقد أو اقتناع أو إلفٍ إلى ما يعارضُه، أو يختلفُ عنه ليس من الأمور التي تتمُّ بين يوم وليلة، ولكنه عمل يتطلب وقتا قد يكون طويلاً، ويحتاج إلى جهد قد يكون شاقاً، والوصولُ إلى النجاح في ذلك – أي في الإقناع بالمفهوم المخالف – من ضروريات وسائله: التأني والحكمة وحسن المعاملة.

ومن هنا جاء توجيه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالدعوة لرسالته بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

قال الله تعالى: {ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ} (سورة النحل، الآية 125).

والعقل لا يرجعُ عن طريق اقتناعه بوساطة إكراهه أو إرهابه، وكما أنّ القلب لا يدخل في ولاية الفقيه؛ كما يقول أبو حامد الغزالي، فإن العقل لا يخضع لعصا المؤدِّب.

فالتعامل مع العقل لن يجديَ إلا بمحاورته وإقناعه، والطريق إلى ذلك معرفة مصدر الاقتناع الدي يسكنُ عقلَ المتطرّف، يحمله على ما يزاوله، وما يقدم عليه من أحداث، يُقْدم فيها على جعل ذاته من بعض رمادِ حرائقه.

لذلك يجب أن يُجلّى بوضوح أنَّ الغلوَّ الذي يضفي هالةٌ تشبِهُ القداسة على أولئك النفر، تجعل أقوالَهم إلجاماً لكل فهم مفارق، وآراءهم تجريماً أو تحريماً لكل رأيٍ غير موافقٍ، وهو جناية على العقل والدين معاً. [52].

2. وفي معالجة العامل الثاني (انفعال عاطفة):

إن ديننا وشريعتنا ليست شريعة انفعال بقدر ما هي شريعة أفعال، فيجب إعطاء مساحة كافية من الإدراك لحقيقة أنّ الريحَ الباعثةَ على إشعال شرارةِ الانفعال لا تهبُّ إلا من ناحيتين، هما الفقر والقهر، وقد تصيرُ هذه الريحُ إعصاراً مثيراً لمشاعر التوتر والغضب، وأحيانا الاشتعال، إذا التقى الأمران على فرد أو مجتمع، والفرد أو المجتمع المشحون بهذه المشاعر لن يكونَ من وسائله التحليلُ والتعليلُ، ومن ثَمَّ الموازنة والاعتدال.

الفقر والقهر هما النبعان اللذان يرويان شجرة التطرف، وما يؤدي إليه من إرهاب، فإنه مما يأتي في أعلى درجات الوثوق أنّ هذين العاملين هما أقوى عوامل نماء العنف وبقائه، وما لم تُبدل جهودٌ فعّالة وصادقة لإقرار العدل ومحاورة العقل ورفع القهر والقضاء على الفقر أو تقليل حِدَّته، فستبقى كل المزاولات الحاضرة لا تزيد عن كونها مُقارعة أسِنة وتساقط ضحايا وإسالة دماء، وذلك من نواميس طبيعة الأشياء التي تنص على أن " لكل فعل ردُّ فعل مساوٍ له في القدر ومضادٍ في الاتجاه " وسيبقى أملَ العالم في فجر جديد سراباً لا ينبِتُ مرعًى، ولا يروي ظامئاً. [53]

خاتمة:

وبعد، فأحمد الله – جل قدره – أن من علي بإتمام هذا البحث، واسأله عز وجل أن يجعله مباركاَ وموفقا.

ثم إن أهم نتائج البحث هي:

- موضوع البحث: ظاهرة التطرف والتكفير؛ الوقاية والعلاج.
- التطرف وما يثمره أو يفرزه من عنف هو خبزٌ عالمي وُجد ويوجد في كل الشعوب والمجتمعات.
- إن الحاجة إلى معالجة هذا الأمر عند المسلمين أوجب، وإلحاحها أشد، وذلك لما عرّض المسلمين له من ويلات، ولما تعرضوا بسببه من تجنٍّ من الآخرين، فأخِذَ الكثرةُ بخطأ القلة، وعُمِّمَ شططُ المشتطِّ – وهو عددٌ قليلٌ – على إحسانِ المعتدلِ والبريءِ، بل والمنكِرِ والمقارِمِ، وهم العددُ الأكبرُ والأكثرُ.
- فقد دأب المفكرون المعاصرون على الحديث عن التطرف في أحد شقيه فحسب، فتحدثوا عن تطرف المغالاة والافراط، وأغفلوا أو تجاهلوا الحديث عن تطرف التسيب والتفريط.
- من صفات المتطرِّف الظاهرةِ: سرعةُ الانفعالِ، والتوترُ، وفورةُ العاطفةِ، وهو غالباً سريعُ التصديق لما يسمَعُ.
- إن الحكم بالكفر على إنسان ما، حكم جد خطير، لما يترتب عليه من آثار هي غاية في الخطر.
- أن هناك علاقة وطيدة بين التطرف والكراهية والتكفير، فالتطرُّفُ من أسبابِ الكراهية والعواملِ الجالبة لها، والكراهية من أسباب التكفير والعواملِ الجالبة لها، إذن التطرف من أسباب التكفير.
- إن من أهم الوسائل للوقاية من ظاهرة التطرف والتكفير: تحكيم الإسلام شريعة ومنهاجاً في حياة المسلمين، أفراداً، ومجتمعات، وأمة.
- إن المعالجةِ الناجعة لظاهرة التطرف والتكفير تستهدف استئصالَ جذوره، لا تقليم أظفاره، والقضاء على مسبباتِه، لا على مظاهره.
- العنف الناتج عن التطرف لا يحدثه إلا عاملان: الأول: اقتناع عقل؛ الثاني: انفعال عاطفة.
- في معالجة العامل الأول (اقتناع عقل): من ضروريات وسائله: التأني والحكمة وحسن المعاملة، ومن هنا جاء توجيه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالدعوة لرسالته بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.
- وفي معالجة العامل الثاني (انفعال عاطفة): القضاء على عوامل نماء العنف وبقائه: الفقر والقهر.

وختاما أسأل الله أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه تعالى، فإن أصبت فما توفيقي إلا بالله، وإن أخطأت فتقصير مني، قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[54] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش:

[1] التطرُّف... خبز عالمي، ص: 123-124.

[2] ينظر: التطرُّف... خبز عالمي، ص: 29-31.

[3] ينظر: التطرُّف... خبز عالمي، ص: 34-37.

[4] ينظر: التطرف الدّيني، الرأي الآخر، ص: 8-9.

[5] ينظر: التطرُّف... خبز عالمي، ص: 21.

[6] ينظر: التطرف الدّيني، الرأي الآخر، ص: 8-9.
[7] ينظر: الوسطية في الإسلام، ص: 73-76.
[8] ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 73-76.
[9] ينظر: الوسطية في الإسلام، ص: 152-155.
[10] ينظر: الوسطية في الإسلام، ص: 73-76.
[11] ينظر: الفتاوى الكبرى المجلد العاشر، ص: 388.
[12] رواه أحمد (4225)، والدارمي (2084)، وحسّنه الألباني في «المشكاة» (1/ 166).
[13] ينظر: الفتاوى الكبرى، المجلد العاشر ص: 408-409.
[14] المصدر نفسه، ص: 620-621.
[15] ينظر: الوسطية في الإسلام، ص: 77-81.
[16] حديث صحيح: راجع صحيح الجامع الصغير حديث رقم: 2680.
[17] ينظر: التطرف الدّيني، الرأي الآخر، ص:10-13.
[18] أخرجه البخاري، رقم الحديث: 69، وأخرجه مسلم، رقم الحديث: 1734.
[19] راجع: صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: 7520، 7521.
[20] المصدر نفسه، حديث رقم: 7520، 7521.
[21] ينظر: التطرف الدّيني، الرأي الآخر، ص:14-15.
[22] التطرُّف... خبز عالمي، ص: 32-34.
[23] ينظر: أسباب الإرهاب والعنف والتطرف، ص: 2.
[24] ينظر: أسباب الإرهاب والعنف والتطرف، ص: 3.
[25] ينظر: التطرف الدّيني، الرأي الآخر، ص:10-13.
[26] التطرُّف... خبز عالمي، ص: 27-29.
[27] ينظر: الوسطية في الإسلام، ص: 120-124.
[28] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 30-31.
[29] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 31-33.
[30] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 37-39.
[31] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 40-42.
[32] المصدر نفسه، ص: 42.
[33] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 49.
[34] فتح الباري ص 92.
[35] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 52.
[36] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 58-60.
[37] المصدر نفسه، ص: 68.
[38] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 29-30.
[39] ينظر: المصدر نفسه، ص: 85-86.
[40] ينظر: المصدر نفسه، ص: 88-89.
[41] ينظر: التطرُّف... خبز عالمي، ص: 24-26.
[42] ينظر: ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 73-76.

[43] ينظر: أسباب الإرهاب والعنف والتطرف، ص: 22-23.

[44] ظاهرة الغلو في التكفير، ص: 73-76.

[45] ينظر: مقال إلكتروني: وسطية التربية بين التدليل والقسوة.

[46] المرجع نفسه.

[47] أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم الحديث: 1028.

[48] المصدر نفسه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم الحديث: 39.

[49] فتح الباري، (94/1).

[50] الوسطية: مفهومًا ودلالة، 2008 م.

[51] ينظر: التطرُّف... خبز عالمي، ص: 126-129.

[52] ينظر: التطرُّف... خبز عالمي، ص: 133-137.

[53] ينظر: المصدر نفسه، ص: 138-145.

[54] سورة الإسراء (الآية 85).